التشيع

أيهما فيه أقدم الشام ام العجم

طالعت ما ورد في المقتطف من احد فضلاء تبريز جواباً على ما سبق لي ولاحمد افندي رضا من ادباء جبل عامل بان التشيع هو في الشام اقدم منهُ في كل قطر حاشا الحجاز

فالفاضل التبريزي يريد ان يقول ان مجرد الاستدلال العقلي على اقدمية التشيع في الشام بإقامة ابي ذرّ الغفاري في نواحيهِ ومخالفتهِ خليفة عصرهِ هو غير سديد اذ اهالي مصر حينئذٍ يجب ان لا يتأخروا عن اهل الشام في التشيع لان محمد بن ابي بكر كان عندهم وهو من الدّ الخصوم لعثمان (رضي الله عنهُ)

ويقول ايضاً ان مبدأ التشيع في العجم هو في ايام الدعوة العباسية اذ معلوم ما ظهر من ميل اهالي خراسان الى تأييد امر العلوية وان تلك البلاد كانت منذ ذاك الوقت مركزاً لعلماء الامامية . وانهُ اذا ورد في تاريخ المحبي وتاريخ جودت باشا ظهور التشيع في فارس في ايام السلطان حيدر او الشاه اسمعيل فربما كان مقصدهما عموم التشيع جميع ايران وجعلهُ مذهباً رسمياً

والجواب على ذلك ان التشيع بدأ منذ ايام سيدنا علي كرم الله وجهه فلما وقعت الحرب بينهُ وبين سيدنا معاوية انقسم المسلمون حتى الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) قسمين قسم كان مع علي وقسم كان مع معاوية . ووقع هذا الانقسام نفسهُ في الحجاز ثمّ في الشام التي لم يطبق جميع اهلها على مناوأة علي يومئذٍ فكان منهم من بقي على موالاتهِ فلهذا قلنا ان الشام في التشيع اقدم من فارس

ولم يكن الاسلام نفسهُ لذلك العهد قد تبسط في فارس حتى يتبسط فيها مذهب من مذاهبهِ فإن لم يكن ثبت الاصل فكيف يثبت الفرع ؟

ثم ظهرت الدعوة العباسية في خراسان ومرّ في اواخر الدولة الاموية حينما هب بنو هاشم لاستعادة الخلافة من بني امية فوجدوا في ذلك السواد وهو خراسان ملياً لدعوتهم وناصراً لكلمتهم وتم الخروج على الامويين وذالت الدولة الهاشميين فاخذها منهم ابناء العباس وكانوا في الاول يداً واحدة مع ابناء عمهم العلوية . ولكن لا يصح ان يقال ان الدعوة العباسية هي نفس الدعوة العلوية بل يقال هما شعبتان من اصل واحد وان الدعوة العباسية

هي غير الشيع وعلى فرض كان ذلك كذلك فاين الايام التي يقول عنها مناظرنا الفاضل وهي ايام اجابة العجم لدعوة بني العباس من ايام انقسام اهل الحجاز والشام بين علي ومعاوية فإن بين العهدين نحواً من قرن واحد فقد كانت خلافة الامام علي سنة ٣٥ وكانت خلافة ابي العباس السفاح العباسي سنة ١٣٢

فاذا ثبت ان اهل الشام انقسموا بين علي ومعاوية في اثناء حرب صفين فقد ثبت ان التشيع ظهر بينهم لذلك العهد واما التشيع في بلاد العجم فلو عدونا القيام باسم بني العباس تشيعاً علوياً محضاً وهو ليس كذلك فلم يظهر الاَّ في اواخر دولة بني أمية ايام مروان بن محمد وهذا حكمنا يسبق الشام للعجم في تاريخ الشيعة

وهناك دليل آخر وهو انهُ لو كان اهل فارس مشايعين لآل علي في قيامهم بدعوة بني العباس لما قاموا ببيعة رجل عباسي حين كان يوجد من العلوية من يطلب هذا الامر لنفسهِ وانما كان القائمون بوشنر بنصرة العلوية هم من العرب لا من العجم

فلما وقع الانقسام بين العلوية والعباسية وخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ابن علي بن ابي طالب وهو الملقب بالنفس الزكية وبالمهدي على ابي جعفر المنصور اخي السفاح تبعهُ اهل المدينة وقاتلوا من دونهِ حتى قتل ولم يكن خروجهُ في العجم ولا قاتل معهُ احد من فارس . ثم خرج اخوهُ ابرهيم في البصرة طالباً البيعة لهُ قبل ان يبلغهُ خبر قتلهِ واجاب دعوتهُ خلق وانهزم من امامهِ سفيان بن معاوية اميرها واستولى على الاهواز وواسط وسار الى الكوفة وقد احصى ديوانهُ مائة الف وكاد يتم لهُ الفوز لولا ما قضى الله من هزيمتهِ اخيراً وقتلهِ وذلك سنة ١٤٥ ولم نقرأ انهُ قام بنصرتهِ احد في خراسان ولا في مرو ولا في جميع فارس

ثم خرج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب (رضوان الله عليهم اجمعين) وذلك في خلافة الهادي بن المهدي العباسي وكان ظهورهُ في المدينة والتفَّ عليهِ جماعة من آل البيت ومن اهل المدينة وبايعوهُ وخرج الى مكة فالتقى بجماعة من بني العباس ومعهم من حج من رجالهم وقوادهم فاقتتلوا ووقعت الهزيمة على الحسين وقتل وانهزم اصحابهُ وافلت منهم ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب واتى مصر فارسلهُ واضح عامل البريد وكان شيعياً على البريد الى المغرب وبلغ ذلك الهادي فضرب عنق واضح ومات ادريس بالمغرب وولد لهُ ادريس الاصغر الذي اسس دولة الادارسة بالمغرب مما ليس هنا محل تفصيلهِ ولم يكن لفارس اقل نصيب من هذه المظاهرات لآل البيت بوشنر بل انحصرت في الحجاز والعراق والمغرب

وسنة ٢٠١ عند ما اوصى المأمون بولاية عهده الى الامام علي الرضا بن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن ابي طالب ولقبهُ الرضا من آل محمد وامر جندهُ بطرح السواد شعار العباسيين ولبس الخضرة شعار العلويين وكتب بذلك الى الآفاق صعب ذلك على بني العباس وامتنع بعض اهل بغداد عن البيعة وادى الامر الى فتنة وبويع ابرهيم بن المهدي بالخلافة وكان المأمون في مرو فسار الى العراق وجرت حروب وانهزم الثائرون على المأمون فلم تسمع ان عرقاً في العجم نبض لهذه الحادثة مع ان المأمون دخل بغداد ولباسهُ الخضرة وطاوعهُ الاكثرون وصار اهل العراق يدخلون عليهِ في الثياب الخضر ويحرقون كل ملبوس يرونهُ من السواد ولولا وفاة الامام علي الرضا سنة ٢٠٣ لربما بقي المأمون على عزمهِ في التخلي عن الامر للعلوية فلو كان التشيع يومئذٍ راسخ العروق في ارض العجم لما سبقهم احد الى الموالاة والمظاهرة ولتقدموا فيهِ على العراقيين الذين هم اولى بنصرة بني العباس

ولما ظهرت الدولة العلوية الفاطمية وهي اول دولة علوية حقيقية استوثق لها الامر ولم تكن ايامها نزوة ثائر ولا فتنة خارج بل دولة راسخة متأثلة زاحمت دولة بني العباس بالمناكب ابتدأت سنة ٢٩٦ واستمرت الى سنة ٥٦٧ . كان اول ظهورها في افريقية وامتدت منها الى مصر والشام والحجاز حتى خطب بدعوتها الامير البساسيري في العراق وعلى منابر بغداد مدة غير قصيرة فكان العرب هم القائمين بالدعوة الفاطمية يومئذٍ ولم يكن العجم القائمين بها

ثم ان عبدالله القداح الذي كان من كبار دعاة هذه الدولة سار من نواحي اصفهان الى الاهواز والبصرة ثم الى سلمية من ارض حمص داعياً فكان قصدهُ بلاد العرب . ويدعي انهُ لو وجد في بلاد العجم يومئذٍ مثاراً للدعوة او مستوراً لزند لما رحل عنها الى غيرها . ثم خلفهُ ابنهُ احمد فصحبهُ رستم بن حوشب من اهل الكوفة فاختار ليث دعوتهِ اليمن وهناك التقى ابن حوشب بابي عبد الله الشيعي فاصطحبا واتفقا على بث الدعوة في افريقية فسار ابو عبد الله الشيعي اليها واجابت دعوتهُ قبائل كتامة وقبائل بني الاغلب فقهرهم فكانت هذه البلاد منبتاً لاكبر دولة علوية شيعية وذلك قبل الدولة الشيعية الصفوية القائمة ببلاد العجم بستمائة سنة

وفي سنة ٢٥٠ عند ما ظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن ابي طالب ظهر بالكوفة واستولى عليها ولكن خانهُ السعد فظفرت بهِ جيوش العباسيين وقتل وحمل رأسهُ الى الخليفة المستعين . ولا نعلم فيما يحضرنا من التاريخ وان يكن ما نعلمهُ فيهِ اقصر من ان يسمّى عملاً ان دولة علوية قامت في العجم قبلاً الى زمان الحسن بن زيد بن محمد

ابن اسمعيل بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب الذي قام بطبرستان وكثر جمعهُ واستولى على طبرستان وجرجان وسمي بالداعي الى الحق وذلك سنة ٢٥٠ وقتل سنة ٢٨٧ وقام بعدهُ الناصر الحسن بن علي المعروف بالاطروش وتوفي سنة ٣٠٤ وقام من بعدهِ الحسين ابن القاسم العلوي و يلقب بالداعي وقتل سنة ٣١٦ وانقرض بموتهِ ملك العلويين في هاتيك الديار

ولا اريد ان اقول بهذا ان التشيع لم يعرف في العجم الاَّ في هذا العهد بل انما اقصد كونهُ عرف هناك بعد الشام كما قدمنا وانهُ ايضاً لم يكن في العجم شائعاً كما هو اليوم يشهد بذلك التاريخ وظهور الجم الغفير من ائمة اهل السنة من بلاد العجم. اما ابتداؤهُ في العجم فيرجع الى اواخر القرن الاول. قال ياقوت الحموي عند ذكر قم ما يأتي: ذكر بعضهم ان قم بن اصبهان وساوه وهي كبيرة حسنة طيبة واهلها كلهم شيعة امامية وكان بدء تعميرها في ايام الحجاج بن يوسف سنة ٨٣ وذلك ان عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث بن قيس كان امير سجستان من جهة الحجاج ثم خرج عليهِ وكان في عسكرهِ سبعة عشر نفساً من علماء التابعين من العراقيين فلما انهزم ابن الاشعث ورجع الى كابل منهزماً كان في جملتهِ اخوة يقال لهم عبدالله والاحوص وعبد الرحمن واسحق ونعيم وهم بنو سعد بن مالك بن عامر الاشعري وقصدوا الى ناحية قم وكان هناك سبع قرى اسم احداها كندان فنزل هؤلاء الاخوة على هذه القرى حتى افتتحوها وقتلوا اهلها واستولوا عليها وانتقلوا اليها واستوطنوها واجتمع اليهم بنو عمهم وصارت السبع قرى سبع محال بها وسميت باسم احداها وهي كندان فاسقطوا بعض حروفها فسميت بتعريبهم قمّاً وكان متقدم هؤلاء الاخوة عبدالله بن سعد وكان لهُ ولد قد ربي بالكوفة فانتقل منها الى قم وكان اماميًّا وهو الذي نقل التشيع الى اهلها فلا يوجد بها سني قط. ومن ظريف ما يحكى انهُ ولي عليهم والٍ وكان سنيًّا متشدداً فبلغهُ عنهم انهم ليبغضهم الصحابة الكرام لا يوجد فيهم من اسمهُ ابو بكر قط ولا عمر فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم بلغني انكم تبغضون صحابة رسول الله (صلى الله عليهِ وسلم) وانكم لبغضكم اياهم لا تسمّون اولادكم باسمائهم وانا اقسم بالله العظيم لئن لم تجيئوني برجل منكم اسمهُ ابو بكر او عمر ويثبت عندي انهُ اسمهُ لافعلن بكم ولاصنعن. فاستمهلوهُ ثلاثة ايام وفتشوا مدينتهم واجتهدوا فلم يروا الاَّ رجلاً صعلوكاً حافياً عارياً احول اقبح خلق الله منظراً اسمهُ ابو بكر لان اباهُ كان غريباً استوطنها فسماهُ بذلك فجاؤا بهِ فشتمهم وقال جئتموني باقبح خلق الله لتنادروني عليهِ وامر بصفعهم فقال لهُ بعض ظرفائهم: ايها الامير اصنع ما شئت فان هواه قم لا يجيء منهُ من اسمهُ ابو بكر احسن صورة من هذا. فضحك وعفا عنهم اهـ

وقد سمعت هذه النادرة نفسها من فم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رواية عن استاذه الامام الكبير الشيخ جمال الدين الافغاني أكرم الله مثواهما

وعلى هذا فيكون التشيع في بلاد العجم مخصوصاً بقمّ وبعض اماكن وكانت تقع بين الشيعة وبين اهل السنة هناك الحروب والفتن كما يستدل عليه من التاريخ وفي الثلث الاول من القرن الرابع غلب بنو بويه على العراق واستبدوا بامر الخلافة وصار الخليفة آلةً في يدهم وكانوا شيعة واصلهم من الديلم وبقيت دولتهم الى سنة ٤٤٧ ولكن لم يغلب بواسطتهم التشيع على بلاد العجم ولا على بلاد العراق . وما غلب التشيع على الاقطار الايرانية وصار مذهب الدولة الرسمي الاّ في ايام الملوك الصفوية في اواخر القرن التاسع كما ذكر المحبي وجودت باشا وغيرهما من المؤرخين

اما التشيع في جبل عامل واطراف جبل لبنان من بلاد الشام فلا تزال الادلة تقوم على كونه فيها من لدن الفتح وقد يأتي التاريخ في اثناء سرد الحوادث وتأتي كتب السير والتراجم بما ينبئ عن استتبابه فيها منذ ظهوره الى الآن . من ذلك ما ورد في طبقات الشافعية للعلاّمة السبكي في ترجمة الفقيه ابي الفتح نصر بن ابرهيم بن نصر المقدسي المعروف بابن ابي حافظ وهو قوله : تفقه على الفقيه سليم (يريد سليماً الرازي الكبير) بصور ثم دخل الى ديار بكر وتفقه على محمد بن بيان الكازروني ودرس العلم ببيت المقدس مدة ثم انتقل الى صور واقام بها عشر سنين ينشر العلم مع كثرة المخالفين له من الرافضة ثم ذكر وفاته في سنة ٤٩٠ بدمشق

وقال ياقوت الحموي عند ذكر الكرك : قرية في اصل جبل لبنان وليس هو من القلعة التي يقال لها الكرك بفتح الراء ونسب اليها ابا الرضا الكركي وقال كان ثقة في الحديث متقناً لما يكتبه الاّ انه كان رافضياً مات في سادس عشر ذي الحجة سنة ٥٩٢

كذلك في رحلة ابن بطوطة في القرن الثامن ما يدل على وجود الشيعة في هذه الاماكن[1]

ومن هنا استدلنا على كون التشيع معروفاً في جبال الشام من ايام امير المؤمنين كرم الله وجهه الى يومنا هذا فلا يسبق الشام في هذا المعنى قطر الاّ الحجاز ولا يساويها فيه الاّ الكوفة

شكيب ارسلان

(١) (المنتطف) وقد ورد ذكر الشيعة في رحلة ابن جبير وكان في دمشق سنة ٥٨٠ للهجرة قال « والشيعة في هذه البلاد امور عجيبة وهم أكثر من السنيين بها وقد عمّ البلاد بدعاتهم وهم فرق شتى منهم الرافضة وهم السبابون ومنهم الامامية والزيدية وهم يتولون بالتفضيل خاصة ومنهم الاسماعيلية والنصيرية وهم كفرة فانهم يزعمون الالهية لعلي رضي الله عنه ومنهم الغرابية وهم يقولون ان عليا رضي الله عنه كان اشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب »